نظرات في النفس والحياة

— ٢٢ —

جوتا بين الفرد والعالم — الخاتمة

قال مازيني الزعيم الايطالي المعروف : — « يصح أن نسمّي مؤلفات جوتا دائرة معارف في أمور بدّد لانظام لها، وذلك لأنه فقد الشعور بالوحدة التي تؤلف بين الحقائق والأمور، وكيف يكون هذا الائتلاف في مؤلفاته، وهو لا مكان للإنسانية فيها، ولا شعور بها في قلبه . لقد حمل (فيخت) الفيلسوف بندقيته بعد محاضرة من محاضراته كي يشجع الدفاع عن الحرية، وجوتا ساكن لا يتحرك، بينما كانت الشعوب حوله تناضل عن حقوقها ... وبدل أن يصف مثال الكمال في آحاد قصصه اعتنق مادية شعرية أدته الى عدم المبالاة والى انتحار جهوده الأدبية » ... وفي مقال آخر يقول « ان فكر جوتا فكر عقيم لأنه لا صلة له بالعمل » .

وقال هنري هيني : — « ان قصص جوتا ألفاظ ميتة، لا تؤدي الى عمل نبيل، كما تؤدي قصص شيلر » .

وقال هنري هيني في مكان آخر « ان الفن الذي يقتضيه وصف آحاد قصص جوتا الذين يتعثرون في أخطائهم في أشق وأعظم من الفن الذي يَتَطَلَّبُهُ وصف أحاد قصص شيلر »

وقال شتاوبل : — « لقد أخطأ الناس فيهم جوتا، وفهم قلبه الكبير، ونفسه العظيمة، فإذا أهملنا مؤلفاته أهملنا ما فيها من الهداية وشفاء لكل حمّى تنتاب حياتنا الحديثة. ولقد صرّح جوتا في آخر «فوست» أن لا نجاة للعالم والأمم، إلاّ إذا تعلم الآحاد والشعوب ضبط النفس والتغلب على شهوة التملك والتحكم » .

وقال ألدوس هكسلي : — « لقد فطن جوتا الى الأسباب التي تقتل الميزات الفردية في الحضارة الحديثة فرجع هو وشيلر الى الحياة الأغريقية القديمة، إذ كان الأغريق يتشدون حياة فيها الحرية اللازمة لظهور الطباع والميزات الفردية » .

وإشارة ألدوس هكسلي تذكّر بمقالة (الحضارة واختلاف الطبائع) التي نشرناها في المقتطف في عدد مارس سنة ١٩٤٧ . وقد اقتبسنا ما وعاه ليوكيديدس من خطبة بركليز الشهيرة التي يفخر فيها بالحضارة الأثينية ، وانها تعطي كل إنسان الحرية اللازمة لطباعه وميزاته الشخصية . وذكرنا في تلك المقالة رأي جيزو المؤرخ السياسي الفرنسي ورأي جون ستوارت ميل الفيلسوف الانجليزي ، وإنهما كانا يريان أن الحضارة تكون أتم ثمرة وأزهر زهرة، وأعظم فضلاً ونفعاً إذا صيغت الطباع الفردية .

ومن أجل ذلك يرى ألدوس هكسلي أن لجوتا فضلاً كبيراً على الحضارة الحديثة.

أما خصوم جوتا الذين أشار مازيني الى مبالغتهم في خصومته فقالوا ان مؤلفات جوتا في الأدب الألماني مثل داء السرطان في جسم الإنسان ، فيصدق فيهم قول ستاويل أنهم لم يفهموا مقاصده. وأما اتهام مازيني جوتا إنه كان لا يشعر بالإنسانية فهل أدلّ على تواضعه في الشعور بها من قوله في نظرة سابقة : — أنظر في نفوس الناس، ثم أنظر في نفسي فلا أرى شيئاً من آثامهم أو عيوبهم أو أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه وأتصف به) فالرجل الذي يرتضي لنفسه الهوان كي يظهر صلته بالإنسانية في جميع مظاهرها ، لا يقال إنه لا يشعر بالانسانية إلاّ على سبيل المبالغة . وأما قول مازيني ان جوتا كان يفصل بين الفكر والعمل ففي آخر قصة «فوست» في محاورة فوست لنفسه يختم في الحياة التمهدّي من التفكر الى العمل دائماً. وقال جوتا : ان نابليون أخطأ في احتقاره المفكرين النظريين، إذ أن الفكر يؤدي الى العمل ، ولكن مازيني يعني نوعاً خاصاً من العمل، وهو العمل الثوري السياسي الذي كان جوتا لا يميل إليه . وكان هم مازيني طول حياته القيام به ، كما أن جوتا يعترف أنه لا يثق بتفكر العامة ولا بعملهم إذا أُلقِيَ لهم الحبل على الغارب . فاذا كان كل هذا عيباً فهو من عيوب جوتا . وأما حمل (فيخت) بندقيته فلو أن نابليون تجنب الشرّ لاستطاع النيل من المانيا بارضاء طموح دول المانيا المتنافرة . أما قبول جوتا وسام الشرف من نابليون فربما كان متورطاً في ذلك والواقع أن نابليون كان يعمد الى اظهار كبار المفكرين الالمان كأنهم ممالئون له توريطاً لهم . وأما خطأ جوتا في تقدير أماكن الضعف في دولة نابليون فيكفي في عذره ما رأى من تخاذل ملوك المانيا وقبولهم ألقاب الملك منه، وعلى

أي حال فهو خطأ منه . وقد حذر جوتا الألمان من أن تكون لهم أطماع كأطماع نابليون ، كما حذرهم من ارتكاب الفظائع في الحروب حتى ولو كان ارتكابها تشبثاً بالأعداء . وقال ان النصر الذي لا ينال الا بارتكاب الفظائع غير جدير بأن ينال . وكان مازيني يعيب على جوتا اهتمامه بالفردية في أدبه . ويرى أنه من المستحيل التوفيق بين الفردية والجماعة بينما كانت طريقة جوتا أن يعطي آحاد قصصه الحرية لمحاولة التوفيق بين طباع الفرد وحقوق الجماعة، فان استطاع التوفيق تثقف وتعلم، ومن لم يستطع خاب أو هلك. واذا قرأنا كتاب (واجبات الانسان) لمازيني نراه يحث على الواجبات وضبط النفس كما حث جوتا، ونراه يرى الجماعة الوطنية حلقة من حلقات الانسانية العالمية ، كما رأى جوتا الذي حذر العالم من حب السيطرة والتملك . ونحن نرى كتّاب غرب أوروبا يعيبون على الروسيا ان أنساق النظام الشيوعي يقتل الميزات الفردية . وعلى أي حال فان محاولة جوتا التوفيق بين الغرضين محاولة جليلة . ووسائل اليونسكو التي يقوم بها أخو الدوس هكسلي ووسائل مجلس الأمن في بث التفاهم بين العالم ونشر السلام هي وسائل جوتا سواء أنجحت أم لم تنجح. وكان ألدوس هكسلي يرى أن أسباب ضياع الميزات الفردية بسوق الناس على نمط واحد (ستَنْدَرِيزيشون) موجودة في الدول الغربية، فالمصانع تخرج له ملابسه وآلاته وأزياءه على نمط واحد، والتخصص في العمل يقصر فكره على أمر واحد، والجرائد والمجلات والملاهي تهيء له أخباره وأفكاره وملاهيه على نمط واحد، والتعبئات العامة في الجيوش الحديثة تسوق الناس الى نمط واحد أيضاً . وربما كان ألدوس هكسلي مبالغاً (كما يبالغ في بعض الأحايين) في بيان خطر هذا الاتساق، ولكن رأيه معقول . والاعتزاز بالميزات الفردية كما أوضح هي خطة جوتا مع التوفيق بينها وبين الجماعة والعالمية .

وفيما يلي بعض آراء جوتا مع التعقيب عليها : —

(١) ينبغي أن يتذكر المرء أن في نفس كل انسان خواطر لو عبّر عنها صراحة سببت استياء واستهجاناً ، والتعبير عنها يكون اما من العجز عن ضبط النفس واما من قلة التمييز بين ما يليق وما لا يليق ، واما من التعمد على الانسياق في شرح خطرات النفوس ، كما يفعل الشعراء والكتاب، وأما بالعدوى في البيئات غير المثقفة التي يدعو فيها استرسال انسان في

هذا الامر الى استرسال أصدقائه ومعاشريه . وهذه النظرة تذكرني قصة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكي فيها يتحدث كل أناسي القصة بحديثين ، ويسطقون بقولين ، أولاً القول الذي لا يضير سماعه والذي هُيِّئ لتقوله ، وثانياً القول الذي يعبِّر عما في النفس فتسمع انساناً يُظْهِر لآخر المودة في حديثه الاول ، ثم يعقبه بصوت منخفض حديث نفسه الذي يدل على كذب الحديث الأول يُعَبِّر عن الحقد والذم، ولو كانت هذه سنة جارية في الحياة لنا استطاع أن يتعاشر الناس . ومن قبيل هذا ما ذكره جوتا نفسه عن حديث نفسه عندما قال إنه من حماقة حب العظمة الباطلة كان يجول بخاطره إن أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن ، ولم يكن جوتا عاجزاً عن ضبط لسانه، وإنما آثر هو ان نفسه ووخزها كي يعظ الناس ويعطيهم درساً كما فعل جان جاك روسو في بعض اعترافاته ، ولم يكن روسو فاقد الشعور، بل كان شديد الإحساس بما يؤلم. وقد اتخذ بورن اعتراف جوتا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء ، وجعل اعتراف جوتا هذا اظهاراً للطبع الغالب عليه . ولعله قد غلبه طبع صراحة صاحب الفن، أو غلبه دافع خفي تسمي الى التكفير عن الخاطرة باعلانها للناس

(٢) إنما تراد التقوى لتثقيف النفوس أرفع ثقافة ، وللبلوغ الى الطمأنينة والسكينة . أما الذين يقولون إن التقوى غاية في نفسها، فانهم يشتهون إما الى مغالطة أنفسهم، واما الى مغالطة الناس — وهذه النظرة عامة لانها توضح طريقة جوتا في نظره الى الأمور ، إذ كان يرى أن قيمة كل أمر حتى التقوى وهي أظهر الامور إنما هي فيما يُكْسِبُ النفس من ثقافة. وقيل أن هذا نوع من الأثرة وحب الذات، ولكن يستطيع جوتا ان يقول أن الأثرة المكروهة تنافي الثقافة النفسية. واذا قيل ان التقوى إنما تراد لطاعة الله، قال جوتا ان طاعة الله في تثقيف النفس وتهذيبها . وهذه النظرة عامة أيضاً اذ توضح قوله ان من يتخذ الوسيلة غاية في نفسها قد يضل عن الغاية الأصلية، وقد يتخذ الغاية الثانية (أي الوسيلة التي صارت غاية) وسائل تنافي الغاية الأصلية . فكم من أناس مع التقوى والتدين يتخذون وسائل تخالف مقاصد التقوى والتدين السامية النبيلة ويُحِيشُون احساسات تناقض غايتها السامقة .

(٣) إنما يكون الواجب حيث يُحب المرء الأمر الذي أمرته به نفسه وفرضته عليه. وإنما يريد جوتا ان لا يفصل بين الواجب والسرور بعمل الواجب. وما كان يَغْرُب عن باله ان ضبط النفس الذي يحث عليه يقتضي حملها على مالا ترد من الخير وفطامها عما تحب من الشر، ولم يخْفَ عليه معنى قول عمرو بن كلثوم

ولكن فطام النفس أعسر عملاً من الصخرة الصَّمَّاء حين تروعها

(أعسر أي أصعب وأشد) ولم يَغِبْ عنه معنى قول البوصيري

والنفس كالطفل إن تُرْضِعْهُ شبَّ على حب الرضاع وان تَفْطِمْهُ ينفطم

ولم يَفُتْهُ أن النفوس اذا لم تعالج بالضبط يوشك ان يصدق في كثير منها قول الحصين ابن المنذر.

أمرتُهُ نفسي بالدناءة والخنا ونهته عن طلب العُلى فأطاعها

ولكن جوتا رأى أن من عمل على تكرُّه ويغض لما يعمل غير جدير بأن يُدْعى مُؤدِّيًا لواجب، فان نفسه قد تكون منطوية بسبب هذه التأدية على خبث وحقد وغيظ ومكر وقسوة ونفاق وتضليل وغلظة وكذب وتهيئة السوء وحب الانتقام، فيضرُّ ويؤذي نفسه كما يضر ويؤذي غيره. وهذه النظرة توضح اهتمام جوتا بالصواب والصدق، والحق في جوانب القول المختلفة، فهو يرى ضبط النفس ويرى مع ذلك ما قد يكون في قهرها وإرغامها من شر. ويرى أن صفات الشر المنتنة من الرغم والتكره في العمل من غير سرور به قد يزيد شرها على فائدة العمل الذي أداه المرء تكرهاً، فهو إذاً غير جدير بأن يدعى مؤدياً الواجب.

(٤) ينبغي أن نتذكر انه كما أن عظماء الرجال يكسبون نسيج الانسانية متانة في النسيج، ويمنحون الى حدٍّ ما طراز ذلك النسيج، فان عامة الناس هم الذين يكسبون نسيج الانسانية سعة وعرضاً وطولاً وعظمة بتلك السعة، فهما مثل السدى واللحمة. ولا يستغني صنف عن صنف من الناس. وهذه كلة من الكلمات العديدة التي يظهر جوتا بها شعوره بالانسانية. ومثلها قوله في نظرة سابقة (كل انسان مهما كان مستقلاً عن الناس، في عيشه، إما مدين وإما دائن للناس في الأقوال والأعمال والآراء والاحساسات).

(٥) كما أن التفكير النظري يؤدي المرء عن طريق المشاهدة والتطبيق الى فهم الحقائق وادراكها، كذلك ينتهي المرء بالمشاهدة والتطبيق الى التفكر النظري ، ولا غنى للانسان عن اتباع الطريقتين . وفي هذه النظرة استدراك على من يريد أن يقصر الطريقة الحديثة في التفكر والاستنتاج على الوصول عن طريق المشاهدة والتطبيق الى التفكر النظري العام، وهي الطريقة التي صمت واتبعت وقرظت بسبب سوء الأخذ بالطريقة الأخرى وقهر الشواهد على أن تؤيد ما بدىء به من التفكير النظري . ولكن الواقع ان الانسان من عهد ان كان ساكناً في الكهوف الى عهدنا هذا يستخدم الطريقتين كلاً منها في مكانها ووقتها ومناسبتها.

(٦) إن المقاصد الاكثر سموًّا ورفعة أعظم أثراً في النفس وإن لم تتحقق وتنجح من المقاصد التي هي أقل سموًّا ورفعة لأن المرء عند ما يطلب الأولى ويفكر فيها ويعمل لها تسمو جوانب نفسه وعقله بالتهيؤ لطلبها والسعي في سبيلها ، ويكون أثرها في نفسه أعظم وأتم نمواً من المقاصد الثانية — وهذه النظرة تدل أولاً على حث جوتا الناس على المقصد الاسمى، وثانياً على تمييزه بين المقاصد والوسائل فانه عند ما قال (ان الانسان لا يستطيع أن يصل الى الكمال غير المحدود الاّ من طريق الامر المحدود ، ولا يستطيع أن يبني مثال الكمال إلاّ على الأمور الواقعة)كان يعني الوسائل التي يتخذها المرء في سبيله .

(٧) ينبغي للمرء مهما أجاد في عمله أو فكره أن لا يحسب أن الناس كانوا يرقبون مجيئه الى هذا العالم،وانهم ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير عمله أو فكره ، فكثيراً ما يخادع المرء نفسه حتى نفس من ليس فيه غناء . وانما هذا مصداق قول أناتول فرانس ان كل حي من الأحياء حتى ولو كان كلباً صغيراً يرى انه مركز الكون ، ومحور العالم. ولعلّ في قوله بعض المبالغة. أما جوتا فانه لا يريد أن يصرف أحداً عن العمل والفكر، وإنما يريد منه أن يعرف الأمور على حقيقتها،وان عمل المرء مهما كان عظيماً إنما يكون عظيماً بالاضافة الى عمل غيره من الناس ، وهذا من شعوره بتماسك الانسانية وتضافرها ووحدتها . وعلى ذلك فان قول كارليل لو خيرنا بين أن نفقد امبراطورية الهند وبين أن نفقد مؤلفات شكسبير لاخترنا أن نفقد امبراطورية الهند ، ليس معناه ان الناس ما كانوا يستطيعون

أن يعيشوا من غير شعره، وما فيه من ثقافة وفكر ووصف للنفوس.

(٨) كان الانسان دائماً يعيش تحت ظلال الحروب المتوقعة، لأنه في جميع تاريخه كان يحاول أن يسيطر على غيره وهو غير مسيطر على نفسه حتى في بحثه عن الجمال — ويعني جوتا بالجمال المعنى الأعم الأشمل، وفيه معنى الاصلاح والتنظيم والتنسيق. وفي هذا القول اشارة الى خطة الساسة الذين يفضلون اتساع دولتهم طولاً وعرضاً بدل اتساعها عمقاً بالاصلاح الذي في كل دولة مجال كبير له. وفضلاً عن حب السيطرة على غيرهم فقد كان يغريهم بذلك خشية إغضاب الطوائف والآحاد إذا مس الاصلاح مرافقهم الخاصة، أو الاعتزاز بكرامة قومية مؤسسة على التغافل عن أوجه النقص. ولكن الاصلاح الداخلي يؤدي الى زيادة عدد السكان وهذه الزيادة تبعث على طلب السيطرة على غيرهم، الا إذا كان ضبط النفس المنشود يشمل أيضاً ضبط النسل وتحسينه، وهو ما يقول به كثيرون الآن.

(٩) ان ملكة التمييز التاريخي هي في ذلك التمييز العقلي الذي يستطيع به المرء عند قدر المعاصرين وأحوالهم أن يقدر أثر الماضي في الحاضر ومقدار تغلغله فيه. وهذه الملكة قد يكتسبها بعض الناس بالقليل من دراسة الماضي، ولا يكتسبها غيرهم بالكثير من تلك الدراسة، شأنها شأن التجارب التي قد يهتدي بالقليل منها انسان، ولا يهتدي بالكثير منها آخر. إما لأنه خيالي النزعة، واما لشرود لبه، أو استغلاق عقله، واما للزهو والثقة بالنفس البالغة فوق حد الاعتدال وأما لأن المرء رهن احساساته فهو لا يملك أمره.

(١٠) ان فطنة الانسان الى رجاحة فكرة وإلى فائدتها لا تدل على أنه قادر لا محالة على الاستفادة منها بتطبيقها. وكثيراً ما ابتكر الناس أموراً نافعة وظلت مدة طويلة لا أثر لها في حياتهم، اما من نقص في التطبيق، واما من إحجام الناس عن كل جديد. بل إن في العقل ما هو أغرب من ذلك، فقد يفطن المرء الى رجاحة الفكرة، ومع ذلك تظل هي ونقيضها في عقله كل يحتل مكاناً خاصاً.

(١١) ان كتابة التاريخ قد تكون طريقة من طرق التخلص من الماضي. ولعل هذا مثل أن يكون الشاعر أو الكاتب في قيد حادث ماض أو شعور قديم فلا يتخلص منه إلا بأن يعبر عنه فتطمئن نفسه وتستأنف في الحياة أعمالاً واحساسات جديدة

ع. ش